

الأمر بالنظر في خلق السماوات والأرض

العالمين. وصلى الله وسلم علي أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. كثيرا ما يأمر الله تعالى عباده أن يتفكروا ويعتبروا فيما بين أيديهم وما خلفهم؛ ليأخذوا آية ودلالة على قدرة ربهم الذي خلقهم من عدم، والذي خلق لهم هذه المخلوقات. لما نزل قول الله تعالى: { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } قَالِ الْمُشْرِكُونَ: وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ أَيْ: مَا الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ؟ أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً يَعْذَرُ بِهَا فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْتَبُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَبَّتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } . فإن هذه الآيات آيات ودلالات لقوم يعقلون، ولا يعتبر بها إلا أهل العقول الذكية، يتأملون ويتفكرون، ويعتبرون في خلق هذه السماء، وخلق هذه الأرض، واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من ماء فأجابه الأرض بعد موتها، وتب فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض. كلها آيات وعبر ودلالات شاهدة بعظمة من أوجدها، ومن خلقها. أقرب شيء إلى الإنسان: هذه الأرض، وما خلق الله تعالى فيها، إذا اعتبر فيها وتفكر استدلت بذلك على عظمة الله سبحانه، وعلى كمال قدرته، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الذين لا يعقلون ولا يتأملون ولا يتفكرون ولا يتذكرون ولا يعتبرون، هؤلاء بلا شك أشبه بالبهائم، حيث أنهم لم يتفكروا فيما خلقوا له، ولم يعرفوا الحكمة التي خلقوا لها؛ حيث لم ينظروا فيما بين أيديهم وما خلفهم. ولو علموا لعرفوا أنهم ما خلقوا عبثا، وأن الذي خلقهم لا بد أن له عليهم حقوقا عظيمة، فلا يسعدون إلا بأدائها كلها، فإذا اتبعوا أهواءهم وشهواتهم، وأكبوا على ما تميل إليه نفوسهم، وأشبَعُوا غرائزهم وبطونهم وفروجهم، وجعلوا ذلك هو أكبر ما يهتمون به لم يلتفتوا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم، ولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، ولم يتأملوا ولم يتفكروا؛ فأصبحوا بذلك كالبهائم التي ما خلق الله لها عقولا تفكر فيه، إنما جعل لها شهوة تعيش بها، تأكل من يابس، أو رطب هذا النبات، وتتوالد وليس لها تفكير ولا نظر. فهكذا من لم يتأمل ولم يتفكر ولم يتفكر فيما خلق له هو مثل البهائم، وقد يكون أقل حالة من البهائم! نعرف أن الله سبحانه يلفت أنظار عباده إلى المخلوقات العلوية والسفلية فيأمرهم بأن يتفكروا في هذه المخلوقات ويعتبروا فيها، قال الله تعالى: { إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } الرب هو المرئي، وهو المالك، أمرهم بأن يستدلوا على أنه ربهم بخلقه لهذه المخلوقات العلوية والسفلية، فإذا تأملوا فيها عرفوا أنه ربهم، وأنه الذي يملكهم ويتصرف فيهم. { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } يعني: أنشأها، وأبدأ خلقها دون أن يتخذ معه أعوانا أو شركاء. خلقها كما يشاء. ذكر الله تعالى أنه خلق سبع سماوات طباقا، يقول الله تعالى: { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاطُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ } { وَلَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا } يعني: انظر في هذه السماء التي فوقنا هل تجد فيها تشقفا أو تفتورا؟ تجد أن الله أحكمها عندما خلقها وجعلها { طِبَاقًا } أي: طبقة بعد طبقة، أحكمها وجعلها بهذا الخلق، أي سماء فوق سماء، إلى سبع كما شاء. سبع سماوات طبقة بعد طبقة، أي سماء فوق سماء { مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاطُوتٍ } أي اختلال.. لا تجد فيها عيبا ولا خلا؛ هذا شاهد على أنه سبحانه خلقها سبع سماوات. وقد مر بنا أن بعد ما بيننا وبين السماء الدنيا مسيرة خمسمائة سنة. من الذي يحصيها؟ حددها الله تعالى، وأطلع نبيه على هذه المسافة. وكذلك ورد أن ضخامة وكثف هذه السماء وعرضها أو غلظها كذلك مسيرة خمسمائة سنة. وهكذا السماوات، كل سماء بهذه المسافة؛ ومع ذلك خلقها الله تعالى كما شاء. قال بعض المؤرخين والفلكيين: إن الله خلقها من مادة البخار، أمر البحار أن تتبخر، فكان بخارها لما تجمد كانت منه هذه الأفلاك العلوية هذه السماوات، ثم رسب منه ما ترسب من ذلك الماء المتجمد، فخلق منه هذه الأرض وما عليها. الله تعالى قادر على أن يخلقها بدون مادة تتكون منها، بل: إنما يقول للشيء كن فيكون، إنما أمره بين الكاف والنون، فخلقها كما شاء دون أن يكون لها مادة تتكون منها، أو تتركب منها كما يشاء الله. كذلك أيضا ورد الأمر بالنظر فيها للتفكير، وإن كانت أبصارنا لا تصل إليها حقيقة، لعد ما بيننا وبينها، ولكن النظر فيها -ولو كانت بعيدة- والتأمل فيها والتفكير فيها بعيد الإنسان عبرة وموعظة، ولذلك قال تعالى: { أَقَلَّمْ نَبَطْرًا إِلَى السَّمَاءِ قَوْفَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُجُورٍ } ينظروا إليها بعقولهم ويتفكروا ويعتبروا بما أخبرهم به، وبما أمرهم به أنه خلقها. { كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُجُورٍ } أخبر بأنها مبنية: أي بناها الله تعالى. ثم أخبر أيضا بأنه رفع سمكها يقول تعالى: { أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا } بناها كما شاء. { رَفَعَ سَمَكَهَا } أي: جعلها مرتفعة هذا الارتفاع. { فَسَوَّاهَا } ليس فيها خلل ولا نقص؛ يدل ذلك على أن ربنا سبحانه أحكم ما خلقه وأتقنه، وأنه أقام على الخلق الحجاج والبراهين إذا نظروا في هذه الأفلاك العلوية. كذلك أيضا أخبر بأنه ثبتها بغير عمد، يقول الله تعالى: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } أي: ليس هناك عمد تمسكها. السقف المرتفع يحتاج إلى ما يمسكه، لو سقطت هذه العمدة من هذا المسجد لسقط السقف؛ لأنها التي تمسكه، ومع سعة السماء، ومع قوة ارتفاعها أمسكها الله تعالى بقدرته وبقوته، ولم يحتج إلى عمد تمسكها بل { رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا } . لا شك أن هذا دليل على عظمة الخالق سبحانه، كيف رفعها بهذا الارتفاع؟ وكيف أمسكها بقوته وبكمال قدرته مع سعتها؟ يقول الله تعالى: { وَالسَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ } الأيدى هو: القوة يعني { بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ } ليس هو جمع يد، ليس بأيدي، الأيدى هو القوة، أي بنيناها بقوة، والدليل قول الله تعالى عن داود { وَادْكُرْ عِدَّتَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ } أي صاحب الأيدى، وليس الأيدى البدن، وإنما أراد صاحب القوة في أمر الله. فهكذا أخبر بأنه بناها بقوة وبقدرة، وبقوله: كن. فكانت كما يشاء. وأخبر أيضا بأنه زينها، قال تعالى: { وَلَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ دَنِيًّا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ } هذه المصابيح هي النجوم؛ النجوم التي ركبها في هذه السماء الدنيا، وسيرها كما شاءت في أفلاكها، تسير كما يشاء الله { وَلَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ دَنِيًّا بِمَصَابِيحَ } أي: بهذه النجوم، جعلها كالسرج. المصابيح هي: السرج التي تضيء الظلام؛ فهي تضيء لأهل الأرض، ويهدون بها، وجعل فيها منافع لهم، قال الله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ } النجوم مركبة في أفلاكها وسائرة كما يشاء الله، وسيرها يتفاوت؛ فبعضها أسرع سيرا من بعض، وكلها تطلع وتغرب كما يشاء، وبعضها لا يغيب، بل ثابت، كالقطب ثابت في موضعه، لا يتحرك إلا قليلا. وكذلك أيضا بعضها يكون سيرها أسرع من سير الشمس، وبعضها يسرع في أول ما تطلع، كالزهرة، وعطارد، والمشتري، ونحوها، ثم تتأخر شيئا فشيئا، إلى أن تغيب في المشرق. لا شك أن هذا حكمة من الله، حيث جعلها بهذه الكيفية، أي: أحكمها، فنعبر بذلك، ونعرف أن الذي خلقها هو خالق كل شيء، وهو رب كل شيء، وهو مالك الملك، وهو ذو الجلال والإكرام، وهو الذي يستحق أن يُعبد، كذلك أيضا من آياته هذه الأرض التي بسطها للأنام. قال الله تعالى: { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا } أخبر بأنه دحها، وأخبر بأنها بُسِطَتْ { وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ } أي: صارت مسطحة مستوية، ومع ذلك جعلها فراشا.. فراشا للإنسان يتقلب فيها { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا } وجعلها بساطا { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا } . هذه آيات يُدَكِّرُ الله بها عباده { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا } السُّبُلُ: الطرق، أي: تسلكوا طرقا بين هذا وهذا. فهذه آياته التي أمر بأن يعتبر الناس بها، يقول الله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ } . خلق السماوات وخلق الأرض وما بث في الأرض التي تشاهدونها من الدواب التي تنتشر فيها، لا يعلم عددها إلا الله تعالى، وقد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وضمن لكل منها قوته ورزقه الذي يكون سببا في وجوده، وفي حياته كما يشاء. فإذا اعتبر العباد وتفكروا عرفوا بذلك قدرة من أوجد هذه الموجودات وأحكمها، ويكون من نتيجة ذلك إخلاص العبادة له ولما يسر ابن كثير قول الله تعالى: { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَعْجَلُوا لَهُ أَتَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } . أنشد ما نقل عن ابن المعتز الذي هو من الشعراء الإسلاميين، يقول: فوا عجا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد ولله في كل تحريكه وتسكينه أبدا شاهد يعني: كيف يعصي ربه العبد؟ ولا يتأمل ولا يتفكر في هذه الموجودات، وبأخذ منها عبرة على قدرة من خلقها وأوجدها. كيف خلقها خلقا تاما؟ ليس منها مخلوق يحس بشيء من النقص. ذكر بعض العلماء أن أكبر، أو من أكبر المخلوقات المشاهدة الحية الفيل، ومن أصغرها البعوض الناموس.